جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

دور العبادات واثرها في
السلوك الانساني والعلاقات البشرية

الدكتور عبدالله علي حامد العبادي

الرياض

1413 هـ - 1993 م

دور العبادات وأثرها
في السلوك الانساني والعلاقات البشرية(*)

الدكتور محمد خير عرق سوسي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فإن الحديث عن «أثر العبادات في السلوك الانساني والعلاقات البشرية» يقتضي بيان ما يلي:

١ ـ أن نعرف السلوك الانساني ومحركاته، والاسلام يحرص على أن يكون المحرك الأول للانسان حرصه على الكرامة الانسانية في الفرد وفي المجتمع.

٢ ـ ومن ذلك ننتقل من الحديث عن كرامة الانسان التي تحرك سلوكه الى بيان العلاقة بين الكرامة من جهة والعبودية لله من جهة أخرى، حيث يتبين أن العبودية لله تحرر الانسان من أن يذل لغير الله فترفع بذلك من شأنه وتزيد من كرامته.

٣ ـ وأخيراً نتحدث عن الكرامة التي تؤكدها وتذكر بها العبادات وارتباطها بالمعاملات أو حسن العلاقات بين البشر.

(*) ألقيت هذه المحاضرة بمقر المركز بتاريخ ٢٧ شعبان ١٤٠٦هـ الموافق «٦ مايو ١٩٨٦م».

أولا : السلوك

١ - تعريف السلوك:

لقد اتفق علماء النفس اليوم على تعريف علم النفس بأنه: «علم السلوك» وهي تسمية كان السبق فيها لعلماء المسلمين.

ولكن العلماء المعاصرين يختلفون في تعريف السلوك نفسه نظراً لاختلاف النظريات النفسية التي تقوم عليها أبحاثهم.

ولم يقع العلماء المسلمون في أي ارتباك في تعريف السلوك حينما أخذوا من كتاب الله أن الأحوال القلبية في تغير مستمر، وعن هذا التغير تتغير مواقف الانسان جميعاً، قال تعالى: ﴿.. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]، وعليه فالسلوك كل تغير يعتري الانسان في الظاهر أو في الباطن، ولابد لكل تغير من أسباب .. ولذلك فإننا سنفصل هنا الحديث عن محركات السلوك وأسبابه لدى الكائنات المختلفة من الجماد الى الحيوان الى الانسان.

٢ - درجات السلوك:

١ - لكي نعرف السلوك الانساني في طبيعته الواقعية، نتدرج مع المخلوقات في درجاتها المختلفة:

---

[1] - سورة الرعد. الآية: ١١.

[2] - سورة الأنفال. الآية: ٥٣.

فنجد أن الجمادات لا تتحرك الاَّ إذا دفعها دافع من خارجها، كالكرة لا تتحرك الاَّ إذا دفعتها قدم اللاعب، أو أي مؤثر خارجي آخر.

واللاعب هو الذي يتحكم في اتجاه الحركة، وسرعتها، وشدتها .. وهكذا يكون سلوك الأجسام غير الحية مرتبطاً بالدافع الخارجي، متوقفاً عليه.

لقد قامت في علم النفس الحديث مدارس تقنن أثر «الدافع الخارجي» على سلوك الحيوانات وتعممه على سلوك الانسان، ونظرياتها تنطبق الى حد بعيد على ما نسميه بالآلية النفسية، الاَّ أن الباحث المتعمق لا يستطيع أن يكتفي بالجانب الآلي من سلوك الحيوان أو سلوك الانسان، وذلك لأن للحيوان نفساً وللانسان نفساً ولكل نفس خصائصها السلوكية، وذلك ما نوضحه فيما يلي:

٢ ـ أما الكائنات الحية، كالنبات والحيوان، فإن سلوكها يرتبط بأحد عاملين أو هما معاً:
الأول: هو «الدافع الخارجي»، مثلها في ذلك مثل الجمادات، فإذا عبثت الريح بالنبات تمايل وإذا ضرب الحيوان حتى يسير في اتجاه معين سار.
والثاني: هو «الباعث الداخلي»، أو حاجات الحياة.
أ ـ فحياة النبات تجعل جذوره تتجه تلقائياً ـ بتقدير الله ـ نحو الأماكن الرطبة من التراب، ولما كانت الرطوبة في الأعماق أكثر وأدوم، فإن الجذور تتجه الى الأعماق تبحث عن الماء بقدرة الله

الذي قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، وبذلك تتحقق حكمة إلٰهية في تثبيت النبات في الأرض فلا تقتلعه الريح، ومن وراء ذلك حكم كثيرة إذ يساهم ثبات النبات في الأرض بِجر الانسان الى التحضر والاستقرار.

ب ـ أما الفروع والأغصان وساق الشجرة فإنه يتغلب ـ بقدرة الله ـ على ما فوقه من تراب مهما كان وزنه وصلابته، فرغم أن النبات يكون في أول درجات نموه وحياته فإنه بقدرة الله الذي قال: ﴿ثم شققنا الأرض شقاً﴾ ـ يتغلب على ما فوقه من حجارة أو رمال وتخرج النبتة ـ على صغرها وضعفها الى سطح الأرض ليتيسر لها، ـ باذن الله ـ (التنفس) الضروري لحياتها.

فالنبات يأخذ من الهواء مولد الحموضة ـ الأوكسجين O، ويعيده الى الهواء بعد تفاعلات داخلية على شكل ثاني حمض الفحم (ثاني أوكسيد الكربون CO2) مثله في ذلك مثل بقية الكائنات الحية.

جـ ـ أما الأوراق والأزهار فإنها تتجه تلقائياً ـ بقدرة الله ـ نحو الضوء وتستقبل الشمس بأنوارها ليتيسر لها ـ باذن الله ـ تفاعل داخلي يعرف اليوم باسم «التفاعل الكوروفيلي» فزيادة على التنفس الطبيعي تقوم أوراق النبات بتأثير النور بأخذ غاز الفحم، الذي أفرزته الكائنات الحية في العالم كله من انسان وحيوان أو أي احتراق على ظهر الأرض، فيقوم «الكلوروفيل» أو المادة الخضراء بتحليل حمض الفحم (CO2) وفصل الفحم منه ليتكون من ذلك الفحم خشب النبات، وبعد التحليل تطلق

. . (مولد الحموضة (CO2) فتكون بذلك قد قامت بتصفية الهواء المحيط بالأرض وتنقيته من الغاز السام (CO2) بقدرة الله الذي أتقن كل شيء خلقه.

د ـ ولا يختلف الحيوان غير الناطق عن النبات الاَّ في قابلية التنقل من مكان الى مكان.

فالأسماك تجوب البحار بحثاً عن غذائها.

والطيور تجوب الأجواء وتسافر من قارة الى قارة ومن إقليم الى إقليم حتى تدرك الجو المناسب لحفظ فراخها من حيث الحرارة والرطوبة وتبدلاتها. .

وتتحقق في التنقل حكم لا يعلمها الاَّ الله ، يكفينا منها مثال الفراشة أو النحلة التي تنتقل من زهرة الى زهرة لتمتص غذاءها، وعن غير قصد منها تهز الطلع أو تنقله بأرجلها فتلقح به الأزهار وتزيد الثمار . . وهكذا.

هناك إذاً عند الكائنات الحية سلوك تلقائي تدفع اليه حاجات الحياة الذاتية، ولكنه يحقق الى جانب تضمين حاجات الحياة الذاتية أهدافاً بعيدة لا نتصور أن الحيوان يعرفها أو يقصدها، فهي تخدم الانسان من حيث لا تدري، ومن حيث لا يدري الانسان نفسه.

وصدق الله الذي منَّ على الانسان بتسخير المخلوقات لخدمة الانسان.

هـ ـ والآية العجيبة في سلوك الكائنات المسخرة للانسان تظهر عندما ننظر الى سلوكها نظرة اجمالية وكلية حيث نجد (تناسقاً وتكاملاً)

بينها إذ يؤدي مجموع سلوكها المنفرد الى غايات كلية لا يمكن أن نتصور أنها كانت مقصودة لدى أي واحد منها، فضلا عن أن نتصور حدوث اتفاق بين الأطراف المتعددة التي تساهم في تحقيق غرض ما منها، على التعاون لتحقيق ذلك الغرض.

فالشمس والقمر والبحار . . تتعاون في ظاهرة المد والجزر، ويأتي دوران الأرض لينقل المد أو الجزر من مكان الى مكان، فيتحقق بذلك تقليب مياه البحر الراكدة أصلا، كما تتحقق أهداف كثيرة أخرى . . مثل زيادة تبخر الماء وحمله مع الهواء - ربما - بل حتماً دون اتفاقية سابقة على هذا النقل المجاني الجوي.

وتسوقه الرياح الى حيث قدَّر الله نزوله من بقاع الأرض ليحيي الله به الأرض بعد موتها.

ذلك التناسق الذي لا يمكن أن يحدث مصادفة لأنه يتكرر أحياناً كل يوم وأحياناً كل شهر وأحياناً كل عام في مواعيد دورية . . والمصادفة أن حدثت مرة فلا يمكن أن تتكرر.

ذلك التناسق الذي لا يمكن أن نتصور حدوث اتفاق بين الأطراف المشتركة فيه.

و - ذلك من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه والذي تحدى العقول البشرية في دقة صنعه فقال: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذي خلق سبع سمٰوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر

هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾[1].

ز ـ ذلك التناسق والتكامل والتعاون تقوم به السموات والأرض طواعية وامتثالا لأمر الله الذي صور لنا حقيقة أمره حيث قال: ﴿قُل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾[2].

ومن ذلك فسنطلق على ما مرَّ من درجات السلوك الفردي والجمعي اسم: سلوك الطائعين.

٣ ـ أما الانسان فذلك عالم آخر يمتاز على بقية المخلوقات بما منحه الله من كرامة تؤهله ليكون خليفة الله في الأرض[3].

أ ـ وقد صرح القرآن الكريم بهذه الكرامة في أساليب متعددة قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[4].

وبين في آيات أخرى أن الله خلق الانسان بيده[5]، واسجد له

---

[1] ـ سورة الملك. الآيات: ١ ـ ٤.

[2] ـ سورة فصلت. الآيات: ٩ ـ ١١.

[3] ـ أنظر سورة البقرة. الآية: ٣٠.

[4] ـ سورة الاسراء. الآية: ٧٠.

[5] ـ أنظر سورة ص. الآية: ٧٥.

الملائكة[1]، بعد أن نفخ فيه من روحه[2].

ثم كرمه فعلمه[3] .. ثم كرمه فجعله معلماً للملائكة[4] .. ثم كرمه بحمل الأمانة[5] .. وما يترتب على ذلك من المسئولية[6] .. ثم كرمه بارسال الرسل يعلّمون الناس[7] .. كما كرمه بانزال الشرائع والكتب[8] التي تساعده علي تقويم سلوكه ..

وهكذا فالكرامة الانسانية ثابتة في نصوص الكتاب في كثير من الوجوه.

ب ـ والانسان يعرف هذه الكرامة من نفسه وبنفسه فمن المشاهدات الواقعية اليومية:

١ ـ أن يمتنع رضيع عن تناول ثدي أمه إذا قدمته إليه بأسلوب خشن.

٢ ـ وبعد السنة الأولى يظهر عند الطفل سلوك (الحرد) إذ يرفض ما يقدم اليه من طعام أو شراب إذا ظن إن التقديم لم يحظ بما يناسبه من التكريم.

---

[1] ـ أنظر سورة الاسراء. الآية: ٦٩.

[2] ـ أنظر سورة السجدة. الآية: ٩.

[3] ـ أنظر سورة البقرة. الآية: ٣١.

[4] ـ أنظر سورة البقرة الآية: ٣٣.

[5] ـ أنظر سورة الأحزاب. الآية: ٧٢.

[6] ـ أنظر سورة الاسراء. الآية: ٣٦، وأنظر سورة الصافات. الآية: ٢٤.

[7] ـ أنظر سورة البقرة. الآية: ١٥١.

[8] ـ أنظر سورة الحديد. الآية: ٢٥.

٣ ـ وقد يكون الشعور بالكرامة وراء تمسك الطفل ببعض حاجات يحسب أن نزعها من يده يسيء الى كرامته.

٤ ـ وليس التنافس بين الأطفال ـ بالحق أو بالباطل ـ الّا سباق للفوز بالكرامة والتكريم.

٥ ـ بل إن كذب الأطفال يخفي وراءه حرصاً من الطفل على أن يظهر نفسه بمظهر يعتقد أنه يعزز كرامته.

٦ ـ وما أمر الأبوين بالعدل بين أبنائهم، ولو في القبل، الّا لأن تقبيل أحد الأبناء أمام اخوته يشعرهم أنه قد كُرم عليهم فيثير في أنفسهم عواطف الحنق عليه انتقاماً لكرامتهم.

٧ ـ وقصة هابيل وقابيل إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، تظهر كيف استشاط الثاني غضباً وحقداً ظناً منه أن في ذلك مساً بكرامته، فقال: لأقتلك ثم قتله(١).

٨ ـ وقس على ذلك كثيراً من سلوك الناس أفراداً وجماعات.

٩ ـ وهل الحمية الجاهلية والنزعة القبلية الّا نتيجة من نتائج ربط الأفراد بين كرامتهم وكرامة قبيلتهم ومجتمعهم؟

١٠ ـ وليست العنصرية السائدة في بعض الدول الّا افراطاً من افراطات الشعور بالكرامة .. وهكذا.

جـ ـ فالكرامة الانسانية فطرة قد أكدتها الكتب السماوية والوقائع اليومية، فلننظر كيف تؤثر الكرامة على طبيعة السلوك الذي عرضنا لدرجاته الدنيا.

---

(١) ـ أنظر سورة المائدة. الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

٤ ـ سلوك الانسان: إن سلوك الانسان نسيج وحدة في المجموع وإن كان في بعض جزيئاته لا يختلف عن سلوك الكائنات الأخرى حية أو غير حية.

أ ـ إذ يمكن أن تدفع انساناً من خلفه فيقع على وجهه كالجمادات.

ب ـ ويمكن أن يسلك سلوكاً غريزياً حين يرضع ثدي الأم أو حين يهضم الطعام الذي وضعه في فمه، حيث تتسلسل مجموعة حركات جزئية تلقائية من سيلان اللعاب الى قذف اللقمة الى البلعوم، وسيرها فيه حتى تأتي المعدة، فتصب عليها العصارات، وتعجن حتى تنتقل الى الأمعاء، وتسير فيها ببطء، حتى تتمكن الشعيرات الماصة من أخذ غذائها منه وتسليمه الى الدم الذي ينقله الى جميع أطراف البدن.

كل ذلك يتم بتلقائية تعبر عن عبودية الانسان لله الذي قدر لهذه الأعمال سيرها، وفرض «التناسق» فيما بينها بحيث تحقق غايات تعجز المعامل الكبيرة عن تحقيقها، فتبارك الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

جـ ـ أول مظاهر الخلافة: الارادة والتحكم في الغرائز:

الاَّ أن الله سبحانه قد كرم الانسان بكرامة لا تجدها عند غيره من المخلوقات فجعل له سلطاناً حتى على بعض جوانب هذه الأعمال التلقائية، فهو يستطيع أن يقدم أو يؤخر وقت طعامه وشرابه حتى ولو كان الماء والطعام موفوراً بين يديه.

وهو يستطيع أن يتصرف في كمية الطعام زيادة أو نقصاً، فيصل في أكله وشربه الى حد الكفاف أو الى حد التخمة، أو

الى الاعتدال . . كل ذلك مما يعرفه كل انسان عن نفسه في شتى أحوالها كالأكل والشرب والنوم واليقظة والاقدام والاحجام والأخذ والترك.

د ـ الحكم الخلقي نتيجة الارادة: إن القدرة على اغماض العين متى أرادت وفتحها متى أرادت كرامة من الله يترتب عليها أحد حكمين أخلاقيين:

فأما أن يكون الانسان شاكراً للذي أنعم عليه بالبصر، فيفتح عينه على ما يرضى الله أن بفتح عينيه عليه، فيكون سلوكه سلوك الطائعين عن ارادة وتصميم، وإما أن يكون كفوراً لنعمة الله الذي أعطاه البصر، والسمع، واللسان. . فينظر به الى ما لا يرضي الله أن يراه، أو يتكلم بما لا يرضي الله أو يمشي بجوارحه الى ما حرم الله. . قال تعالى مصوراً هذه الحال: ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً* إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً* إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾(١)

هـ ـ المسئولية والجزاء: وعن كرامة الاختيار تترتب كرامة المسئولية والجزاء، فيتابع القرآن الكريم فيقول: ﴿إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾(٢).

---

١ ـ سورة الانسان. الآيات: ١ ـ ٣.

٢ ـ سورة الانسان. الأيتان: ٤، ٥.

ثم يعدد القرآن الكريم مظاهر سلوك الشكر من الوفاء بالنذر خوفاً من الله واطعام الطعام على حب الله والصبر على المكاره طلباً لرضا الله .. ثم يقول ﴿وجزاؤهم بما صبروا جنة وحريراً﴾(١).

ويعدد صفات هذه الجنة وما فيها من زيادة اكرام حتى يقول: ﴿إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً﴾(٢)، وهكذا نرى في الواقع أن للانسان حرية، وعن الحرية يترتب له موقف الاختيار وعلى الاختيار يكرم بالجزاء والمسئولية.

و ـ الشعور بالمسئولية دافع للسلوك الانساني: ومن هنا امتاز السلوك الانساني المحصن بأنه سلوك لا يرتبط بالدافع المادي الخارجي، ولا يرتبط بالباعث الذاتي التلقائي الذي قد تتوقف عليه الحياة، بقدر ما يرتبط «بالشعور بالمسئولية» وتوقع العاقبة البعيدة ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾(٣).

ز ـ الانتقاص من الكرامة وآثاره: تلك هي الكرامة في أعلى مراتبها: ارادة وخلقاً وشعوراً بالمسئولية وتلك هي التي يفقدها انسان اليوم البعيد عن الايمان بالله فيما يعانيه من ضياع واستلاب، حين يخضع للضغط الاجتماعي أو للشهوات، فكذلك كل من خضع للدوافع ـ وللدوافع الخارجية فقط ـ فقد كرامته الانسانية ﴿نسوا

---

١ ـ سورة الانسان. الآية: ١٢.

٢ ـ سورة الانسان. الآية: ٢٢.

٣ ـ سورة الانسان. الآية: ١٠.

الله فأنساهم أنفسهم . . ﴾(١).

وكذلك كل من تحكمت في سلوكه بواعثه الغريزية وحسب، فقد فَقَدَ كرامته الانسانية: ﴿والعصر * إن الانسان لفي خسر * الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾(٢).

والخسران هنا لا يعني نقصان عين أو أذن أو أنف . . أو غيرها من الأمور المادية الانسانية، إنما يعني نقصان الكرامة التي يتميز بها الانسان.

ثانياً: الكرامة والعبودية

١ ـ العبودية القسرية:

أ ـ ذكرنا أن للانسان سلوكاً غريزياً مثل سلوك الحيوان رغم ما بينهما من بوْن، فقليلا ما يستطيع الحيوان التحكم في غرائزه، بخلاف الانسان الذين يستطيع التحكم في غرائزه توجيهاً وتعديلا وتصعيداً واعلاءً أو هبوطاً الى ما هو أسفل وأدنى من الكرامة الانسانية، حتى يصبح كالانعام، بل إنه أدنى من الأنعام لأن الانعام لم تعط سلطة التعديل من جهة، ولا تعرف القيم الاخلاقية الداعية الى الاعلاء من جهة أخرى، وأولئك هم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن

---

١ ـ سورة الحشر. الآية: ١٨.

٢ ـ سورة العصر كاملة.

والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذن لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(١)، وقال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾(٢).

وقال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم﴾(٣).

ب ـ غرائز المؤمن تشعره بعبوديته: ولكن الغرائز موجودة في الانسان ليعقل أنه عبد خاضع لارادة ربه الذي جعل حياته تتوقف على الغذاء فلو انقطع عنه الغذاء انقطاعاً تاماً أو انقطع الماء أو انقطع الهواء . . انقطاعاً تاماً لم تبق للانسان حياة، فليعترف إذاً بأنه «عبد» تابع لارادة الذي منحه الحياة وهيأ له سبلها ووسائلها، وهكذا فالعبودية القسرية موجودة والغرائز مظهر من مظاهر العبودية القسرية لا يتميز فيها مؤمن عن كافر بل لا يتميز فيها الانسان عن غيره من الحيوان(٤) الا من حيث الاعتراف أو الانكار.

---

١ ـ سورة الأعراف. الآية: ١٧٩.

٢ ـ سورة الفرقان. الأيتان: ٤٣، ٤٤.

٣ ـ سورة محمد. الآية: ١٢.

٤ ـ أنظر تفصيلا عن العبودية القسرية في كتاب ابن تيمية: العبودية، تقديم الأستاذ عبدالرحمن الباني. منشورات المكتب الاسلامي. بيروت: ١٣٩٩هـ. ص: ٤٧.

٢ - التحكم بالغرائز:

إنما تبدأ الكرامة الانسانية بالظهور حينما يحكم الانسان ارادته في الأفعال الغريزية توقيتاً أو تعديلاً أو إعلاءً أو مراقبة، وذلك ما يعرفه الانسان من نفسه، لا نحتاج أن نقف منه موقف المتفلسفين فنضيع بين النظريات التي تتردد بين الجبر والاختيار، فإن البحث النظري البحت ينزلق كثيراً في متاهات يصعب الخروج منها، بينما الواقع وهو الحق ما دام واضحاً لكل انسان، ملموساً محسوساً.

إن كل انسان يستطيع أن يفتح عينيه وأن يغلقهما إذا شاء، وتبدأ كرامته بالظهور حينما يفتح عينيه على ما يجب أن يفتح عينيه عليه ويغمض عينيه على ما يجب أن يغمض عينيه عنه.

وكذلك جميع ما أنعم الله به عليه من النعم قابل للتوجيه الى ما يرفع كرامته أو يحط منها، ولذلك قال تعالى: ﴿والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلّاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾(١).

ونحن نرى في هذه الآيات اشارة الى تناسق مظاهر الكون من شمس وقمر وليل ونهار . . وبيان أن النفس ظاهرة لا تقل دقة وبراعة في تسويتها وبنائها عن مظاهر الكون الأخرى.

فإذا كانت المظاهر الأخرى تسلك «سلوك الطائعين» بالأمر فإن

---

١ - سورة الشمس. الآية: ١ - ١٠.

النفس هي التي تلهم سلوكها الهاماً ينبع من «الذات» بتقدير الله، وللذات أن، تختار من هذا الالهام بين أمرين:

ما يزيد من كرامتها ﴿قد أفلح من زكاها﴾.
أو يحط منها: ﴿وقد خاب من دساها﴾.

٣ ـ العبد والعابد:

ومن هذا المنطلق لا نستطيع أن نفرق بين المؤمن والكافر الاّ بما نفرق به بين العبد والعابد، فالعبد «يراد به ـ كما يقول ابن تيمية ـ المعبد الذي عبده الله فذلله وصرفه»، وبهذا الاعتبار فالمخلوقون كلهم عباد الله: الأبرار منهم والفجار، والمؤمنون والكفار[1]، ثم يوضح ابن تيمية الفارق فيقول: «لكن أهل الايمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به، بخلاف من كان جاهلا بذلك، أو جاحداً له مستكبراً على ربه، ولا يخضع له مع علمه بأن الله ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كان مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كان عذاباً على صاحبه»[2].

«فإذا عرف العبد أن الله ربه وخالقه، وأنه مفتقر اليه محتاج اليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع اليه ويتوكل عليه».

ونحن نلاحظ اضافة الى ملاحظات ابن تيمية هذه أن العبد

---

[1] ١ ـ ابن تيمية: العبودية. المرجع السابق. ص: ٤٧.
[2] ٢ ـ المرجع السابق. ص: ٤٨.

يسير في الطريق التي رسمها له ربه في أفعاله الغريزية مرغماً إذ لا يستطيع غير ذلك، أما العابد فإنه يعرف أن ليس له حول ولا طول ولكنه يتابع الطريق المرسومة له: عن «رضا أولا» بما كتب الله ويتحرى ثانياً ألاَّ يميل في سلوكه الى ما لا يرضي الله.

ولربما ارتفع عن ذلك ثالثاً فأخذ العبودية بمعنى الحب وجعل سلوكه الغريزي تقرباً الى الله، وفي هذا يقول ابن تيمية:

«ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب فإنهم يقولون: قلب متيم إذا كان متعبداً للمحبوب»(١).

ومعنى ذلك أن المحب يطيع المحبوب تذللا وتقرباً في نفس الوقت، والحب في هذه الحالة هو الذي يعمق الشعور بالمسئولية تجاه المحبوب، فإذا كان المحبوب هو الله وصل المحب الى الاحسان في عبادة الله كأنه يراه فإن لم تكن عينه تراه فإن قلبه يراه، ويشعر في قلبه أن الله مطلع عليه.

٤ ـ حب الله يقوي الارادة ويرفع الكرامة:

وقد ربط ابن تيمية بين الحب وبين الارادة فقال: «ومعلوم أن الحب يحرك ارادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت ارادة جازمة في حصول المحبوبات»(٢).

---

(١) ـ المرجع السابق. ص: ١٢٢.

(٢) ـ المرجع السابق. ص: ١٠٦.

وهذا الربط بين الحب وبين الارادة يعني ربط العبادة الخالصة لله تعالى حباً وتقرباً اليه بالسلوك الانساني الظاهر والباطن، فالظاهر هو الذي يتفق مع شرع الله، والباطن هو الذي يقصد به رضا الله وحده لا شريك له.

وإذا كان المقصود رضا الله وحده لا شريك فقد ارتفع العابد بكرامته عن أن يقصد المخلوقين في شيء، أو أن يلحقه من المخلوقين في قلبه انفعال ما، رغبة أو رهبة . . إذن فقد ارتفع الشعور بالكرامة الى أعلى الدرجات(١).

٥ - التقرب الى الله بالتخلق بأخلاقه:

١ - إذا وصلنا الى الحب محركاً للقلب مقوياً لارادته مسدداً للسلوك نتساءل بماذا نتقرب الى الله ونحن الفقراء والله هو الغني الحميد؟

إن أول جواب على هذا السؤال: أن يكون التقرب الى الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ولقد كرمنا الله سبحانه وتعالى: فأنزل لنا على صفوة خلقه كتاباً نعرف منه أوامره ونوهيه، وفي هذا الكتاب نجد مثلا في قوله تعالى: ﴿وقضى ربك الَّا تعبدوا الَّا اياه وبالوالدين احسانا . .﴾(٢)، حيث ترتبط عبادة الله بتنظيم العلاقات بين الناس

---

١ - نجد مصداق ذلك في قصة السحرة الذين آمنوا بالله وتحدوا فرعون بعد أن كانوا يعبدونه ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا .﴾ «سورة طه. الآية: ٧٢».

٢ - سورة الاسراء. الآية: ٢٣.

بدءاً من معامله الأبوين ثم ينتقل الى ذوي القربي فيقول: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾(١).

ثم ينظم كذلك علاقة الآباء بالأبناء بما يحفظ كرامة الصغير عند الكبير كما حفظ كرامة الكبير فيقول: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم واياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾(٢)، وينتقل من ذلك الى العلاقات الأسرية فينظمها بقوله: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾(٣)، ثم يبين حرمة النفس الانسانية وينظم حتى العلاقات بين أهل المقتول وأهل القاتل فيقول: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾(٤).

وهكذا تتابع الآيات في تنظيم العلاقات مما يتوضح معه أن شرع الله الذي نتقرب اليه باتباعه إنما يتلخص في تنظيم العلاقات بين البشر.

٢ ـ وفي درجة أعلى يمكن أن يكون التقرب الى الله بالتخلق بأخلاق الله، وحسبك أن المؤمن يفتتح تلاوته لكتاب الله بهذا اللفظ الكريم «بسم الله الرحمن الرحيم» وبالتالي فإن التراحم بين

---

(١) ـ سورة الاسراء. الآية: ٢٦.

(٢) ـ سورة الاسراء. الآية: ٣١.

(٣) ـ سورة الاسراء. الآية: ٣٢.

(٤) ـ سورة الاسراء. الآية: ٣٣.

الناس أقرب طريق الى الله، ومثله تكون الأخلاق الحسنة كلها فالرسول ﷺ يقول: «أحب عباد الله الى الله أحسنهم أخلاقاً»[1]، ويقول: «أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خلقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[2].

٦ ـ كرامة الفرد وكرامة الجماعة:

١ ـ ذلك أن الاسلام في نظرته للانسان يعتبر كل فرد ممثلا للكرامة الانسانية مجتمعة، عرف ذلك في أسلوب قصصي حين عرض قصة هابيل وقابيل فقال تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . .﴾[3].

٢ ـ ومن هناك كان الفرد مسئولا عن حفظ كرامته في نفسه بالابتعاد عما يحط هذه الكرامة مثل الخمرة التي تزيل العقل أو السرقة والخيانة التي تحد من القدر في نظر الناس، أو الكذب الذي يجعل صاحبه محتقراً في نظر الناس.

٣ ـ وهو كذلك مسئول عن كرامة الجماعة لا يسكت عن منكر يقع فيها ولا ينفك عن الأمر فيها بالمعروف والنصح لله ولرسوله ولأولي الأمر في جماعة المسلمين وخاصتهم وعامتهم.

---

[1] ـ رواه الحاكم وصححه الألباني.

[2] ـ رواه الطبراني وصححه الألباني.

[3] ـ سورة المائدة. الآية: ٣٢.

٧ ـ المبادىء الأساسية للعلاقات:

١ ـ ولقد حدد الله المبادىء الأساسية للعلاقات في كتابه الكريم فقال: ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون * وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون﴾(١).

٢ ـ ومبادىء العدل هي التي تطبق في العلاقات بين الأعداء ولو كانوا أعداء الله، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على الّا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾(٢).

ثالثاً: الكرامة والعبادات

١ ـ بهذا المفهوم للسلوك الذي يحقق الكرامة حباً بالله، وشعوراً بالمسئولية تجاهه يتسع مفهوم «العبادة» ليشمل كل عمل يمكن أن يعمله الانسان، وصدق رسول الله حين صدع بما أمره الله به فقال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾(٣).

٢ ـ ومع ذلك فإن العبادات بمفهومها الخاص من صلاة وزكاة وحج

---

١ ـ سورة النحل. الآيتان: ٩٠، ٩١.

٢ ـ سورة المائدة. الآية: ٨.

٣ ـ سورة الأنعام. الآية: ١٦٢.

وصيام تظل شعائر اسلامية تستحق التعظيم ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾.

٣ ـ وأقل ما يقتضينا تعظيم هذه الشعائر أن ندرك معناها ونعرف ونحقق مغزاها.

٤ ـ فمن حيث المعنى الحقيقي للعبادات يجب أن نعرف كل عبادة منها تتمثل في ثلاثة جوانب متآزرة متكاملة:

أ ـ ففي كل عبادة مظهر خارجي من قيام وقعود أو ترديد كلام مقصود أو الاتجاه الى مكان في يوم موعود . . أو ما شابه ذلك من الأفعال الظاهرة التي أمرنا الله بها وعلمنا الرسول إياها. كما تعلمها من الوحي عن طريق جبريل الأمين.

ب ـ وبالاضافة الى المظهر نجد جانب المخبر حيث يختبر الصدق في العبادات بما يتبعها بعد ذلك من معاملة حسنة وأخلاق تسيطر على العلاقات بين الناس، يقول القرآن الكريم: ﴿إتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾(١)، وكذلك الصيام فإن مخبر الصدق فيه أن يدفع الصائم الى ترك الغيبة والنميمة والشعور بآلام الفقراء يدفعه الى البر بهم والاحسان اليهم . . وهكذا.

جـ ـ والجانب الثالث وهو الأساس ولنسمه جانب «الجوهر» حيث لا تفيد هذه المظاهر الاّ إذا قصد بها وجه الله.

---

(١) ـ سورة العنكبوت. الآية: ٤٥.

٥ ـ أ ـ ولعل أبرز صفة في العبادات الراتبة هي التكرار مع تكرار الزمن فإن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، والصيام يرتبط بشهر رمضان ويعود كلما عاد، وللحج موسمه فهو أشهر معلومات.

ب ـ فإذا كان المعنى في كل عبادة يجمع بين جوهرها وهو الاخلاص ومخبرها وهو تحسين المعاملة ومظهرها الخارجي، فقد اصبحت كل عبادة تدريباً للانسان، وتذكيراً له باستكمال جوانب كرامته من مظهر يرضي الله وجوهر هو الاخلاص لله ومعاملة حسنة مع الناس ترضي الله، وبتكرر هذا التذكير مع دوران الزمن يتبين أن فيه تربية مستمرة تشمل العمر كله.

٦ ـ وعليه فإن الله الذي كرم بني آدم بما كرمهم به، قد نظر الى ضعفهم من جهة أخرى فأكرمهم بالعبادات تذكيراً بكرامتهم في مختلف المناسبات، فإذا حاولت مشاغل الحياة الأخرى أن تأخذك يميناً أو يساراً كما يحصل في الأجيال الكثيرة الضائعة المسلوبة من حولنا لم يمض يوم واحد الَّا وتكرر على سمعك النداء (الله أكبر) من هذه المشاغل فكرِّم نفسك بالعودة اليه، وأن لبيَّت النداء جرك الى طهارة البدن وطهارة القلب ثم الى ترك العجز والاعتماد على الكبير المتعال: ﴿اياك نعد واياك نستعين﴾ .. وهكذا.

٧ ـ وإذا دار العام جاءك التدريب العملي على التحكم في الباعث الغريزي وجاءك شهر الصيام، وترك الشراب والطعام من ساعة معينة الى ساعة معينة.

فإن كنت قد تعودت في سواه عادة لا ترضي الله كالتدخين

مثلا، أمكنت خلال فترة التدريب التي تمتد شهراً كاملاً بامتناعك عن ممارسة تلك العادة طوال النهار، أن تحزم أمرك وتتركها الى ساعة متأخرة من الليل ثم تتركها تركاً باتاً.

هنالك تشعر بكرامتك، إن العادات الضارة لا تستطيع أن تستعمر قلبك أو تخمد لبّك أو تحجز من ارادتك، بل إن ارادتك القوية بالله تتغلب عليها وتتفوق ويتم لك النصر والتكريم.

٨ ـ وهكذا في كل العبادات تنفي الجشع والشح والبخل وتعود البذل والعطاء.

وفي كل عادة تعودنا عليها العبادات ارتقاء بالكرامة واعلاءً لقيمة الانسان.

فالحمد لله رب العالمين.